سعد الساعى

البسمة السكرى تشع بها الملامح والعيون
وسنابل الآمال ترسمها القصائد والفنون
والأغنيات تهز جدران المنافى والسجون
ورفاقنا فى نشوة النصرالمظفر يضحكون
من أشعار سعد الساعى

عندما كنا صغاراً كنا نقيم مباريات الكرة الشراب فى ميدان سيدى البياع. تعلو صيحاتنا ونجرى ونلعب ثم فجأة نتوقف جميعا صامتين فالرجل المهيب عم عبداللطيف الساعى يمر عبر الميدان مرتديا جلبابه الأبيض والطاقية والمنشة فى يده قادما من بيته إلى الجامع ليصلى. وكنا نعاكس كل الفتيات ليس كما يعاكس الشباب الآن، وانما فقط بالابتسام والنظرات ولا شىء آخر.. إلا «روحية» الفتاة الأجمل فى الحى كله بعيونها الخضراء وشعرها الذهبى. فكيف نجرؤ على مجرد النظر لابنة عم عبداللطيف؟

عم عبداللطيف مدرس لغة عربية أتى من قريته «بطره» لكنه كان متعصبا للوفد فخاض معارك الوفد ضد حكومات الأقلية، ولما أتى الوفد للحكم نسيه الوفديون، وكرامته لم تسمح له بأن يستجديهم حقه فى العودة واكتفى بالعمل فى المدرسة الملكية الخاصة بأجر زهيد وأقام فى شارع ينحنى من ميدان البياع فى بيت عم عباس صاحب محل عصير القصب ووالد عبده الذى أصبح أحد أهم الكوادر الحزبية فى هندسة الإسكندرية. كان عم عبداللطيف لا يزال وفديا متعصبا حتى بعد نسيانه، ومنه سمعت وأنا صغير العبارة التى رسخت فى ذهنى «الافيال تتصارع والعشب يتكسر». تعرفت على الأب لكننى لم أتعرف على الابن سعد فقد كان مدرسا فى مدرسة الارستقراطية السكندرية «سان مارك».

وأخيراً تعرفت عليه ففى الإجازة الصيفية ذهب المسئول وأبلغونى بموعد مع مسئول جديد. الموعد الساعة السابعة صباحا وعشر دقائق فوق مشاية كوبرى طلخا دهشت من هذا الموعد لكننى ذهبت وفى الموعد بالضبط اندفعت قاطرة بشرية فى أول المشاية كتلة من العضلات ترتدى فانلة وشورت تندفع بسرعة مذهلة وعندما اقترب توقف ليمسح العرق الذى يغرقه وقال مبتسما «أهلا يارفيق» لم يلتقط أنفاسه فهى هادئة تماما وكأنه لم يكن يجرى. قال لى اسمى الحركى فهد، وطبعا ستراني كل يوم فى الشارع فلا داعى لأن أخفى اسمى. انه «سعد» ابن عمنا جميعا عبداللطيف الساعى سألته عن سر هذا الموعد فقال فى بساطة لا يوجد فى بيتنا أى ساعة، الساعات رفاهية لا تأتى للفقراء ولهذا أنزل مباشرة بعد دقات الساعة السابعة فى الراديو وأتى إلى هذا المكان جريا. تمشينا فى طلخا لنجلس فى ظل شجرة جميز قدمت له تقريرا عن نشاطنا وعملنا فى مجالات عدة ومنها جمع توقيعات على نداء السلام. هو تحدث طويلا استخدم مفردات رائعة واشعارا له وأخرى لأبيه انها تماما ذات اللغة التى كنا نسمعها من عم عبداللطيف ونحن ملتفون حوله واقفين فى انبهار وهو جالس على كرسى أمام محل عم عبدالمنعم المكوجى.

وفى حواره معى (الإسكندرية عام ١٩٦٥) قال «كان الفقر يطحننا وفرصة التعليم الجامعى تبدو مستحيلة ولهذا تعلق حلمى بالملاكمة، لعبت الملاكمة فى البداية على سبيل المشاكسة للأصدقاء ألاكمهم وأتغلب عليهم ثم أصبحت ضيفا دائما فى «نادى البحراوى» أتدرب يومياً وأهزم كل من ينافسنى، ثم صعدت بطلاً للدقهلية ثم بطلا لمصر فى وزن خفيف المتوسط وتطلعت للحلم الأكبر أن أصبح بطلا للعالم لكننى تعثرت فلا مدرب حقيقيا ولا قدرة على الاحتراف ولا وقت فأنا طالب ثم مدرس» دخل الجامعة بمعجزة فقد كان الأول فى مسابقة اللغة العربية فدخل الجامعة بمجانية كاملة وتفوق فى الجامعة وتخرج (١٩٤٩) بتقدير جيد جدا بمرتبة الشرف ورشح لبعثة فى الخارج ويتألق حلم الدكتوراه والاستاذ فى الجامعة لكنه اطفأ هذا الحلم فالنضال الحزبى يناديه والتنظيم فى محنة ويحتاج كل جهد. وطوال فترة الجامعة كان بطلاً للملاكمة والأكثر تفوقا فى الدراسة، وشاعر الكلية ومنغمسا بحماس شديد فى النضال السرى وكانت قوته الهرقلية تسعفه.

وذات يوم جمعنا ونحن فى المنصورة وبالمصادفة كانت لجنة القسم تضم ثلاثة من الملاكمين الشبان الذين تدربوا على يديه عبده عباس وعادل شراكى وعبدالفتاح موانى ثم

أنا وعدد آخر. كان سعد يحمسنا أن ننطلق فى عمليات توزيع المنشورات والكتابة على الجدران وجمع التوقيعات على نداء السلام فإذا حاول احد المخبرين القبض علينا نعالجه فورا بضربة فى «الجو» ويشير بقبضته إلى فكه، حاول الملاكمون ونجحوا ضربة فى الجو ويترنح المخبر ثم الجرى. وحاولت..أمسك بى عم مصطفى المخبر فجمعت قبضتى الهزيلة وضربته فى الجو كادت أصابعى أن تتكسر وكاد عنقى أن يلتوى فقد أمسك بى المخبر.. وإلى القسم وإلى أبى وإلى عقاب منزلى. عمل سعد فى مدرسة سان مارك لكنه اصطدم بكبير مفتشى اللغة العربية الذى اكتشف أن سعد يلقن الطلاب السياسة، وفصل وفى السجن كانت قوته إنقاذا للضعفاء منا فلويس عوض وفؤاد مرسى وعم محمود السكران لا يستطيعون تكسير البازلت هو ينط من مكان لآخر ليكسر لهذا جزءا من الطريحة ثم للآخر.. وهكذا ثم يعود ليكمل طريحته. وكان سعد محاضرا مبدعا وفى السجن نجح فى إدارة أكثر من دورة تثقيفية فاستحق اللقب الذى اطلقه عليه شاعرنا فؤاد حداد «سعد الساعى الكادر الواعى» وفى سجن الواحات ضبط الأمن رسالة من سعد لأبيه يقول فيها «يا أبى أن أياما مشرقة تنتظرنا رغم أحلك أيام الشقاء والقسوة التى نعيشها الآن» وتكون تكديره لعدة أيام.. وفى سجن المحاريق كتب سعد قصيدة تقترب من ألف بيت لم أزل أذكر منها.

نحن الوريث لمجد أحمس يوم رد الغاصبين
حمل اللواء وخلفه سارت جموع الزارعين

ويفرج عنا جميعا فى ١٩٦٤ فيعود سعد إلى الإسكندرية ليواصل نضاله. ويكون قرار حل الحزب صاعقة على الجميع وخاصة عم عبداللطيف ذهبت إليه فنظر إلى غاضبا والدموع تنهمر بلا حساب، أما سعد فقد وجدته تائها كطفل فقد أباه وأمه، أحلامه تخلت عنه وإنزوى فاقدا لكل مذاق، وجسده الهرقلى انزوى هو أيضا، لاحقه المرض ومرض آخر، وثالث ثم تكون الضربة القاضية بوفاة ابنه الوحيد شهدى وبموت الابن وحل الحزب لم يعد عند سعد أى مبرر للحياة ورحل. ترجل الفارس الشجاع الذى حلم طويلا بأن يتربع على عرش الملاكمة فى العالم.